

اللغة وسؤال الوجود في فلسفة مارتن هيدغر

بالفوضيل يمينة

جامعة مصطفى اسطيمبولي معسكر

"إنّ اللغة ستصبح لغة الوجود مثلما الغيوم هي غيوم السماء" هولدرلين

تعتبر إشكالية الوجود الإنساني من بين أهم الإشكاليات التي طرحها الفلاسفة الغرب على بساط بحوثهم وتأملاتهم الفكرية، نتيجة انطلاقهم من الواقع الأسيف؛ الذي فرض نفسه بقوة خصوصا فترة الحربين العالميتين وما لحقها من دمار وإحباط نتيجة ما ترتب عنها من قلق على المصير وعلى الوجود، ومادام المفكر ضمير عصره فقد ارتأى بعض الفلاسفة بعث الأمل من أعماق الألم؛ بهدف رد الاعتبار للموجود الإنساني وإخراجه من بؤرة الوضع المتأزم الذي يعيشه والذي أفقده الثقة بالتنظير المجرد البعيد عن واقعه البائس واليائس. ولعلّ الإنسان في نظر الفلسفة الغربية المعاصرة هو باب الحداثة، والوحيد الذي بمقدوره صناعة ما بعد الحداثة؛ إذ يسعى دائما في بحثه إلى الكشف عن الحقيقة الإنسانية، من أجل تأسيس السؤال وتحطيم التفكير المغلق (La pensée close) بغية فهم الأنطولوجية الغربية في عمقها وفي حاضرها اليومي وبأبعادها الشخصية والإنسانية، بمختلف تجلياتها الحضارية والثقافية.⁽⁰¹⁾ لذلك يعدّ المفكر الألماني "مارتن هيدغر" (M. Heidegger) من بين أبرز الفلاسفة الغرب الذين أرادوا التأسيس لفهم جديد للإنسان، من خلال إعادة صياغته لجملة من المفاهيم وبلورتها في سياق مختلف، جاعلاً من مسألة الاهتمام بالموجود عنواناً لفلسفته الأنطولوجية في إطار اشتغاله الفكري المتفلسف باللغة وفي اللغة. لتكون إشكالية موضوعنا هي: هل بإمكان اللغة أن تشكل دورا مفصليا في التأسيس لفلسفة هيدغر الأنطولوجية؟

01- سؤال الوجود في فلسفة هيدغر:

إنّ المخن التي خلقتها الحروب العالمية والتي زعزعت الاستقرار وقضت على الأرواح والحريّة، كان لها أثر واضح في اندفاع الإنسان نحو التفكير في مصيره وانصرافه عن التفكير المجرد والتصورات الجوفاء التي لا تمتّ بصلة لحياته⁽⁰²⁾، مما جعل سؤال المصير وهاجس الخوف من المستقبل طرحاً ملحاً في الخطاب الغربي المعاصر، إذ شكّل هذا الجو المشحون بالتوتر مهمازاً ودافعاً هاماً للبحث في مشكلة الإنسان، وجوده، حريته ومسؤوليته... خصوصا الشباب نتيجة ما يعانیه من يأسٍ ودمارٍ ألغى الغاية، الأمل والهدف من حياته.⁽⁰³⁾ الأمر الذي تطلّب من هيدغر طرح سؤال الوجود طرحا يجعل من الكائن ناطقا باسم الوجود وممثلا له.

هذا السؤال المنسي الذي كشف عنه الفكر اليوناني القديم ما قبل السقراطي، ثمّ غطّته وحجبته الميتافيزيقا لأسباب تاريخية ودينية، إذ بعد تساؤل طويل وتجريد عميق قرّر الرجعة إليه لأنّه أصل السؤال الفلسفي.⁽⁰⁴⁾

والسؤال في عمومه احتلّ أهمية بالغة في الفكر الهيدغري، إذ يعتبره أساس التحوّل من الفكر الميتافيزيقي إلى الفكر الأنطولوجي، إنّه السؤال الذي غيّر وجهة الفلسفة الغربية، حيث نقلها من مصداقية المعرفة ويقينيتها إلى السؤال عن محنة الإنسان وماهيته⁽⁰⁵⁾ وهو ما يفسّر قراءة هيدغر النقدية للفكر الفلسفي، إذ يرى أنّ الخطاب الفكري الغربي ابتداء من أفلاطون، مروراً بديكارت ووصولاً إلى نشه؛ نسي الإنسان كموجود يعوّل عليه في المهمة المنوطة به.⁽⁰⁶⁾ والتي هي الكشف عن الوجود.

ليصبح معنى الفلسفة في نظر هيدغر قراءة للوجود، تجربة قلق على المصير، شعور ومعاناة وتصير بذلك أوضح المعاني أشدّها احتجابا واختفاء؛ كونه يطرح سؤاله الرئيس ما معنى الوجود؟ لماذا كان ثمة وجود ولم يكن عدم؟⁽⁰⁷⁾ وكان هيدغر كعادته دائما يتفحص تاريخ الفكر قبله ويكشف عن أخطائه وهنّاته. بهدف استنطاقه والبوح بما سكت عنه، فقد أقام علاقة تأمل حوارية مع التاريخ الفلسفي من خلال طرحه سؤال الوجود، نظرا لأنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يضع وجوده موضع تساؤل وقلق.

وفي هذا الصدد يفرق هيدغر بين وجودين: وجود يومي مبتذل ووجود حقيقي أصيل، وهي تفرقة لا تقوم على أساس أخلاقي بل على أساس أنطولوجي يحيا الإنسان في أحدهما. إذ أن الوجود الأصيل لا يمنع الموجود من القيام بواجباته بل يجعله يراها على نحو جديد، وليس مجرد واقعة من الوقائع كما هو الحال في الوجود المزيف.⁽⁰⁸⁾ ف رؤية الإنسان للأمور تختلف في الوجود الزائف عمّا هي عليه في الوجود

الحقيقي، ذلك أن هذا الأخير تتسع فيه الرؤية وتُجدد أطرها باستمرار، في حين أن الوجود اليومي هو وجود روتيني مملّ خالٍ من القلق والسؤال، يحياه معظم الناس وتسوده اللامبالاة.

لذلك اهتم هيدغر بالبحث عن إمكانيات انكشاف الوجود لنفسه في الوجود-هنا- وهو ما يسمى بالدازاين (da-sein) المعروف باسم الآنية. والتي سعى للكشف عنها في كتابه "الوجود والزمن" (sein und zeit) بوصفها موضوع الأنطولوجيا والتي هي علم الوجود بما هو وجود.⁽⁹⁾ وهذا الوجود هو الإنسان والذي هو موضوع علم الوجود الرئيسي بصفته الكائن الوحيد الذي بإمكانه فهم وجوده والتعبير عليه، إنه كائن تجمعه مع عالمه علاقة الاهتمام، الاهتمام، والسؤال لا الرضوخ والتسليم لأفكار الجماعة.

وهنا يعرض لنا مارتن هيدغر في كتابه "ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هولدرلين وماهية الشعر" أسطورة تعبر عن فكرته وهي أسطورة تنتسب إلى هيجينوس "Hyginus" جامع الميثولوجيا اليونانية تحكي: "أنّ الاهتمام كان يمر عبر نهر من الأنهار فرأى بعضاً من الطمي؛ فأخذه وبدأ يشكّله في صورة تمثال وبينما هو يتأمل التمثال ظهر جوبيتر، فتوسل إليه أن يمنح ما قد صنعه روحاً فلبّى جوبيتر طلبه، ولكن عندما أراد الاهتمام أن يطلق اسمه على التمثال احتج جوبيتر على ذلك وطلب بأن يُطلق اسمه هو على هذا التمثال، وبينما كان جوبيتر والاهتمام يتنازعان حول الاسم ظهرت الأرض وطلبت هي الأخرى أن يكون اسمها هو الذي يطلق على التمثال، لأنها هي التي قدّمت قطعة من جسدها (الطمي) للاهتمام"⁽¹⁰⁾ لكن ما العمل ليتم تسمية التمثال الذي يرمز إلى الإنسان؟

"احتكمت الأطراف المتنازعة إلى ساتورن (الزمان) (Saturn) وجعلته حكماً في القضية، والذي قرر ما يلي: أنت يا جوبيتر بما أنّك قد وهبت الروح للتمثال ونفخت فيه من روحك؛ فستأخذ روحه عند الموت، وأنت يا أرض بما أنّك قدّمت الجسد؛ فعند موته ستستقبلينه من جديد، لكن الاهتمام بما أنه هو الذي صنعه؛ فسيحتفظ به طول حياته وبما أن ثمة نزاعاً حول الاسم فسموه باسم (آدم) (Homo) (لأنه من أدم الأرض (Humus) قد صُنع"⁽¹¹⁾ فهذه الأسطورة تبين كيف أنّ الإنسان تحركه طبيعة تساؤلية تجعل منه كائناً قلماً على وجوده وحياته.

ليكون الاهتمام الذي يسري في دم الإنسان أصلاً ومصدرًا له طالما كان حيًا وأن الزمان هو صاحب القرار النهائي فيما يخص طبيعة الإنسان، إذ الزمانية تمدنا بالأساس الأنطولوجي لهذا المخلوق الذي صنعه الاهتمام.⁽¹²⁾ إذا كان هذا عرض عام وموجز عن سؤال الوجود في خطاب هيدغر الفكري، فما علاقته بالطرح اللغوي؟

02- اللغة وضرورة الكشف عن الوجود:

لربما إنه من ديدن الفلسفة وعادتها أن تجد لنفسها مواضيع جديدة تُفلسفها وتفلسف داخلها لتجدد من خلالها طابعها وأطروحاتها، فتارة ترتبط بالميتافيزيقيا، وتارة بالعلم وتارة أخرى بالأدب... ومن أوجه التجديد تلك نجد ارتباطها باللغة بوصفه ارتباطاً من نوع خاص يجعل من الفلسفة أكثر حيوية وأكثر دينامية، ويلبسها لبوساً جديداً يُسهّم في فتح آفاق بحثية متعددة.

فقد احتلت اللغة مكانة هامة في الفلسفة الغربية المعاصرة، نتيجة مدخلاتٍ متنوعةٍ أفضى تراكمها إلى ميلاد فلسفة اللغة كمساقٍ جديد، ومهما يكن فإنّ معالجة موضوع اللغة من زاوية فلسفية سيمكّن الإنسان الباحث خصوصاً؛ من إحداث مقارنة متفرّدة لفهم نفسه وواقعه، إذ أنّ علاقة الإنسان بوجوده علاقة لغوية والوجود ذاته تملأه كائنات مفاهيمية، ومن غير الممكن الحديث عن فكر بدون لغةٍ تعطيه مسوّغات الوجود ودلائل الحضور، ومن ثمة فإنّ حضور اللغة يعني الكينونة في شتى صورها.⁽¹³⁾

وفلسفة هيدغر اللغوية من بين الفلسفات التي انتشرت على خارطة الفلسفة المعاصرة بثوبها الأنطولوجي المميّز، حيث حاول أن يقيم توازناً بين الكائن والكينونة، إذ الحد الأوسط في هذه المعادلة هو اللغة، باعتبارها بيت الكائن وموطنه الذي يحمل الموت، القلق والعدم وكل ما يرمز إلى الوجود.⁽¹⁴⁾ ذلك أنّ اللغة هي الوسيط الفاعل بين الكائن وكينونته بل هي الكاشف عن كينونته الحقيقية. لكن أي لغة يصير الوجود من خلالها متكشفًا وظاهراً؟

يقول سورين كركجورد: "يا لها من سخرية أن يحطّ الإنسان من نفسه عن طريق الكلام فيهبط إلى مستوى أدنى من العجاومات ويصبح ثرثاراً"⁽¹⁵⁾ ويفهم من هذا التعجب لكركجورد وسخريته من الإنسان الذي لا يجيد فنّ التكلم، إذ الكلام نطقٌ باسم الوجود سواء بالسلب أو الإيجاب، الابتذال أو الأصالة.

يوظف هيدغر المصطلح السالف الذكر، وهو الثرثرة (Gerede) للتعبير عن ضرب من الحديث الذي لا يوصل لشيء ولا يكشف عن شيء، بقوله: "إننا كثيراً ما لا نفهم الأشياء التي يدور حولها الحديث، وإنما نصغي فقط لما يقال في الحديث بما هو كذلك، وبدلاً من أن يكشف الكلام عن الأشياء ويفتّحها فإنه يعتمها"⁽¹⁶⁾ وكأن الثرثرة تعبير غير سليم عن الأشياء وقول فارغ من المعنى، بوصفها إصغاءً وتصديقاً للقليل والقال دون فهم وتمعن.

ويعتقد هيدغر أن الثرثرة هي من ضروب الوجود الزائف مع الآخرين يحول دون مواجهة أصيلة وخلاقة للغة ويؤدي لانحرافها عن وظيفتها الحقيقية؛ المتمثلة في الكشف، إذ الجماعة في نظره تذيب الذات وتفقدتها وظيفتها المنوطة بها إلى درجة يصبح استبدال الفرد بغيره ممكناً، وتكون الذات في حالة من الاغتراب والاستلاب. لأن الناس يمارسون ديكتاتورية حقيقية إذ يتطلبون نوعاً من توحيد المستوى في الحياة الاجتماعية، وكأنهم عبارة عن مفتزق للطرق مفتوح لكل قادم. فيه تُلغى المسؤولية الشخصية لصالح المسؤولية الاجتماعية ويصير سلوك الناس هو سلوك الفرد و غداؤه الثرثرة اليومية⁽¹⁷⁾. فتغيب بذلك معاني الأعمام والتساؤل عن المصير الإنساني وتسود الرتابة في الحياة.

بيد أن الخروج من هذه الحالة لا يكون في نظر هيدغر إلاً بوثة إلى الوجود الأصيل؛ إذ لما كان الإنسان قادراً على إضاعة نفسه، فهو قادر أيضاً على اكتسابها، إحيائها وإخراجها من حالة السقوط التي كانت فيه، وهذه الوثبة هي خطوة تحتاج إلى تصميم على احتمال القلق وما يكشف عنه من أحوال الوجود.⁽¹⁸⁾ على اعتبار أن الانتقال من حالة الوجود الزائف إلى الوجود الأصيل؛ يتطلب عزيمة واصراراً على تجاوز لغة الثرثرة والاقبال على إشراق لغة الوجود ومكنوناتها.

الأمر الذي جعل من فلسفة اللغة عند هيدغر مجال بحث فتح آفاقاً متعددة ومتنوعة للنظر في بنية الكينونة الإنسانية، إنها فلسفة تبحث في الوجود الإنساني من خلال القول، الشعر والتأويل. لتجعل من اللغة مقاربة متميزة بين الإنسان ووجوده لا من ناحية النحو والمنطق وإنما الكلام أو المعنى من ناحية وجودية، مؤكداً على أنّ ماهية اللغة هي لغة الماهية، مما يعني أن اللغة الحقيقية هي التي تعبر عن صميم الوجود، فليست اللغة مجرد علاقة أو رابطة فحسب، بل هي المحرك الأساسي للكشف للوجود، كون أن الوجود هو الذي يتجلى من خلال اللغة للإنسان⁽¹⁹⁾، إذ دراسة هيدغر للغة تتجاوز مستواها اللغوي النحوي والصرفي إلى مدى كشفها عن الوجود. فمن غير الممكن التكلم عن الوجود الإنساني دون اللغة، هذه الأخيرة التي تُعتبر مسكناً له.

فالكلمات واللغة ليست غلافاً أو وعاءً تُحفظ فيه الأشياء ويتوجّه له الكتاب والقراء، إذ أنه في الكلمات واللغة تتجلى الأشياء لأول مرة وتظهر، ولعل هذا ما قصده من خلال عبارته "إن اللغة منزل الوجود"⁽²⁰⁾. لذلك فإنّ أيّ تلاعب بها؛ هو تلاعب بالوجود ذاته.

وهو ما يعرف بازدواجية الدلالة في اللغة (Ambivalence)؛ إذ يمكن أن تكون أسلوب توصيلٍ وانفتاحٍ ويمكن أن تكون وسيلة خداعٍ وانغلاقٍ.⁽²¹⁾ وهذا ما يجعلنا نتساءل: ما السبيل إلى نزاهة اللغة؟ كيف بإمكان اللغة أن تكون طريق كشفٍ وانفتاحٍ؟!

للإجابة ينبغي استدعاء فهم هيدغر للحقيقة بمعناها اليوناني (alethia) بوصفها اللاتحجب، الكشف، التفتح، وكلما كانت علاقة اللغة بالوجود ضمن هذا الفهم الأصيل للحقيقة؛ عندها يمكن القول بنجاح اللغة في احضارها للوجود وجعله ظاهراً.⁽²²⁾ لذلك تقع على عاتق الإنسان مسؤولية كشف الوجود.

على اعتبار أنّه حامل رسالة الوجود وهو الكائن الذي يعبرُ الهوة بين خفاء الوجود وظهوره، بين اللاوجود والوجود، وإذا تكلم فسّر هذا الوجود، ليكون بذلك التفكير والكلام إظهار لما كان مخفياً ومتوارياً⁽²³⁾ حتى أنّه إذا عدنا لمصطلح لوغوس (Logos) باليونانية نجد مشتق من الفعل (Légein) أي يقول، فاللوغوس هو قول.⁽²⁴⁾

إذ يدل القول في نظر هيدغر على "الكلمة أو "الكلام" والكلمة هي ما تتكشف من خلالها الأشياء وتظهر، ومن ثم أعطى للكلام وظيفة كشفية،⁽²⁵⁾ تجعل المتحجب جلياً، والمهم في هذا كله أن هيدغر جعل من اللغة كاشفاً عن الوجود ومسكناً له، وماهية اللغة هي لغة

الماهية إذ تكسب الوجود ماهيته، دلالاته ومعناه وتكشف عن كينونته. إلا أن هيدغر بتفلسفه حول اللغة انتقل من لغة الكائن إلى كينونة اللغة. فكيف تفلسف في كينونة اللغة!؟

03- من لغة الكائن إلى كينونة اللغة.

ابتداء من سنة 1930 شهد فكر هيدغر تحوُّلاً، وهو ما اطلق عليه هو بنفسه مصطلح : التحول أو المنعطف (Kehre) فقد حاول في كتابه "الوجود والزمان" فهم كينونته الدزايين، لكن تحوُّل إلى أن فهم الكينونة بالذات هو الذي يجعل فهم الكينونة ممكناً بحسب الطريقة التي تفتح فيها.⁽²⁶⁾

على اعتبار أن اللغة لا تنشأ من فراغ وإنما تنبع من إنسان ناطق أو متكلم (Homo loquens) الشيء الذي يجعلها في نفسها ممكنة عن طريق اللغة⁽²⁷⁾ وكأنا مع هيدغر نتحدث عن طابع صوفي للغة إذ يتكلم في اللغة وعن اللغة باستخدام اللغة ذاتها.

أليست اللغة هي التي تفكر بنا؟ أليست هي التي تتكلم؟ إذ يعتبر أن الإنسان لا يتكلم إلا استجابة للغة عندما يصغي إلى ما تقوله. حيث يقول: "اللغة ليست في ماهيتها وسيلة يفصح بها الكائن العضوي عن نفسه، ولا هي تعبير عن الكائن الحي... إن اللغة هي الكيفية التي يكشف فيها الوجود عن ذاته"⁽²⁸⁾

ولهذا يتبنى هيدغر في كتاباته الأخيرة نغمة شعرية بل وحتى أسطورية عمقت اهتمامه باللغة نفسها، وهو ما يظهر جلياً في قول جوزيف كوكلمانس (Joseph Kockelemans): "لم تعد اللغة مجرد أداة ولكنها أصبحت نفسها تتكلم"⁽²⁹⁾ إذ لا يمكن أن ينكشف الوجود إلا فيها وبها.

وهذا ما تجلّى في مرحلة تفكيره الأخيرة وهو ما عبرت عنه الباحثة: أنا أرندت (Hannah Arendt) (1906-1975) تلميذة كارل يسبرس وهي من بين أهم وجوه الفكر السياسي الألماني "يتميز فكر هيدغر بصفة الاختراق وهي صفة خاصة (...). وقوة هذه الصفة تكمن في فعل فكر: إن هيدغر لا يفكر "في" أو "حول" وإنما يفكر الشيء"⁽³⁰⁾ من خلال الغوص في أعماقه جاعلاً من الخفي ظاهراً، من الغامض واضحاً ومن اللامنطوق منطوقاً.

وهو ما يفسر قول هيدغر "الفكر ليس ببساطة تاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية المتغيرة، إنه الهبة والالطاف التي يتلقاها الإنسان من انتشار الوجود... وهو أن يجعل وجود الموجود ينطق"⁽³¹⁾

وهذا بغية الوقوف على الوجود كحضور، كانتشار، رابطاً إياه باللغة والنطق وكأن نطق الموجود هو تفسير له، فحتى فعلي الإنصات والاستماع لا ينبغي أخذها بالمعنى الحسي المحض كون أن الانصات هو ارتقاء فكرية داخل أحضان اللغة من أجل اتخاذها مأوى، يقول هيدغر في هذا الصدد: "إن القول هو من شأن اللغة"،⁽³²⁾ إنه قول يجعل من اللغة تتجه صوب الكائن وتناديه مناداة كشف وتفتح. وبهذا نكون مع هيدغر في تجربة مع اللغة؛ ففي محاضرة له بعنوان "انفتاح اللغة" يتحدث عن الدخول في تجربة مع شيء ما، معناه: تركه يتوجّه نحونا، كونها لحظة اكتناه لما يتعلّق بصميم الوجود⁽³³⁾

وفي هذا يقول: "إننا نجيا تجربة اللغة بحيث تعبر عن نفسها بنفسها، فاللغة تتميز بأننا نعيش فيها ونألفها من دون أن ننتبه لها في العادة، أو نحاول تركيز أبعارنا عليها"⁽³⁴⁾ ومن خلال قوله هذا أراد هيدغر من اللغة نفسها أن تتكلم، هذه اللغة التي طالما لازمتنا لكن دون أن نحولها إلى مجال للارتقاء بالوجود الإنساني كشيئاً وتأويلاً.

على اعتبار أن الإنسان في نظر هيدغر هو ناطق الوجود ومؤوله، ذلك أن الموجود الإنساني يفهم ذاته من إمكانية الوجود أو عدمه، بين الأصالة واللاأصالة، بين الجوهر واللاجوهر، بين التواري والتجلي، هو فهمٌ يسمح للكائن بالسؤال عن معنى وجوده، السؤال الذي يسعى لتحقيق فهم المعطى انطلاقاً مما يؤسس المعنى.⁽³⁵⁾ إذ وظيفة اللغة وظيفية وأبيلية لا يحصل الفهم إلا من خلالها، حيث يصفها هيدغر بأنّها: "جلب اللغة بوصفها لغة داخل لغة"⁽³⁶⁾

ومعنى جلب اللغة: هو إظهار ماهيتها، بوصفها لغة: أي بوصفها قولاً داخل اللغة (داخل الكلمة المنطوقة)، من خلال إتاحة الفرصة للغة بالتعبير عن ذاتها بكلّ حرية وعفوية وقد أطلق على تحليله "لوجود الآنية في العالم" اسم: "هرمينوطيقا الآنية" بمعنى تفسير الوجود

تفسيرا فينومينولوجيا، لتكون أنطولوجيا الفهم هرمينوطيقية المضمون؛ باعتبارها فهماً أصيلاً يجعل الإنسان يفتح في اتجاه وجوده الخاص فضلاً عن انفتاحه على العالم.⁽³⁷⁾ ليكون نشاط المفهمة الهيدغري نشاطاً متواصلًا يشتغل باللغة وعلى اللغة.

مما يجعل الإنسان نفسه كينونة لغوية، مادامت اللغة بما هي نطق تعتبر انفتاح على الكائن وإمكان للوجود، إمكان بيني الحقيقة بقدر ما يكشف عنها، إذ صفة الكينونة رحلة لغوية عبارة عن قلق ومغايرة، فباللغة يرتحل الإنسان في حالة من التجاوز من المؤلف إلى الجمالي ومن الثرثرة إلى الإبداع.⁽³⁸⁾ وهذا ما يعكس خروج هيدغر عن المعتاد في الدراسات اللغوية والمنطقية إذ شقّ لنفسه طريقاً مغايراً انتقل فيه من لغة الكائن ليؤصل كينونة اللغة ويتعمق فيها، إنما رحلة لغوية وجودية من محطة إلى محطة لتصل إلى حقيقة مفادها إما المكوث في البيت والتموقع فيه وإما الخروج منه والاعتراب عنه، إنما النور وإنما العتمة.

معتبراً اللغة هي الكافل والحافظ للوجود إذ يقول: "الكلمة هي التي تساعد الشيء على الوجود وتحفظه، إذ هي التي تمكن الموجود من الوجود وتكفله له"⁽³⁹⁾

والأكثر من ذلك أنّ اللغة لا تستدعي الوجود فحسب، وإنما تعطي القدرة على استدعائه والإصغاء إلى نداءه ليتمّ تأويله، وبالتالي تنظر ظاهرية هيدغر الأنطولوجية بصبغتها الهرمينوطيقية إلى الفهم باعتباره الكيفية الأساسية للموجود في العالم.⁽⁴⁰⁾ لأنّه من غير الممكن -حسب هيدغر- الحديث عن التأويل بمعزل عن الوجود؛ إذ أنّ فهم الكائن يتطلّب فهماً للوجود ذاته.

لذلك يعدّ اكتشاف هيدغر للأهمية الأنطولوجية للفهم نقطة تحول في النظرية الهرمينوطيقية، التي تابعها "هانس جورج غدامير" نتيجة نقطة البداية التي قدّمها له هيدغر، لأنّ تحليل هيدغر للوجود الإنساني فتح إمكانية الاعتراف المباشر بالوعي الهرمينوطيقي الفلسفي.⁽⁴¹⁾

04- أنطولوجيا الشعر في فلسفة هيدغر:

من المؤكّد أنّ اهتمام هيدغر بالشعر لم يكن اهتماماً فنياً بحتاً، وإنما كان ضمن سؤال محوري يمسّ انشغاله الفكري، إنه سؤال الشعر، وهو ليس سؤالاً إستيتيقياً فحسب، بل في هو في العمق سؤال أنطولوجي يلميه فكر الوجود الذي ينتسب إلى الأفق الذي يشرعه القول الشعري وهو أفق نداء الكينونة.⁽⁴²⁾ نظراً لأنّ الاشتغال الفكري الشعري لا بدّ أن يكون إفصاحاً واحضاراً للحقيقة الناتجة عن نداء الكينونة. وهذا الموقف الأنطولوجي من الشعر عند هيدغر حدث في إطار الانعطاف الذي شهدته فكره، إذ لم تعد لغته هي لغة كتابه "الوجود والزمان" بل أخذت حماسته للفلسفة طريقاً آخر، حيث أصبح يتحدث عن نهاية الفلسفة والتي تعني اكتمال الميتافيزيقا المناسبة للوجود، غير أنّ حديث النهاية هذا هو إيدان ببداية أخرى، إيدان ببداية مهمة الفكر والفكر لا يعني -حسب هيدغر- أعمال العقل على نحو منطقي فقط، إنما هو معانقة للقول الشعري في أصلته.⁽⁴³⁾ وخطاب النهاية هذا هو نتاج التقنية المفرطة، التي وصلت حدّ تشييء الإنسان وسلب وجوده الأصيل.

في هذا الصدد يقترح هيدغر العودة إلى الأصل؛ حيث تمّ طرح سؤال الوجود بشكل أصيل؛ أي إلى فلاسفة اليونان الأوائل (أنكسمندر، بارمنيدس، هرقليطس...) إلى أولئك الذين فكّروا بشاعرية تجلّى فيها حوار الشعر والفكر⁽⁴⁴⁾.

إذ يعتبر عبد الرحمن بدوي الوجودية أقرب الفلسفات إلى الشعر والشعر أقرب الفنون إلى الوجودية، فالشعر والفلسفة صورتان للتعبير عن الوجود ولا غنى للواحد منها على الآخر، ليسقط بذلك التعارض بين الفلسفة والشعر، بين عالم الواقع و عالم الخيال.⁽⁴⁵⁾ ولكن أي تفكير وأي شعر؟

يقول هيدغر: "إن المقول شعراً والمقول فكراً ليس شيئاً واحداً، لكنهما قد يكونان شيئاً واحداً بالفعل؛ عندما تنفجر بوضوح وبشكل نهائي الهوية بين الشعر والتفكير، وهذا يمكن أن يحدث عندما يكون الشعر شعراً رقيقاً والتفكير تفكيراً عميقاً"⁽⁴⁶⁾ وبالتالي ما يجعل التعارض بين الفكر والشعر يختفي هو أصالة الشعر وعمق التفكير، ليصبح المفكّر شاعراً والشاعر مفكراً.

وتجد هيدغر في مواطن عدّة يشير إلى أقوال الشاعر الألماني "هولدرلين" - (1770-1843) بوصفه مصدر إلهامه الحقيقي - ومن ذلك: قول هولدرلين: "إن الذي يفكر في الأكثر عمقا، يحب الأكثر حياة" وكان تعليق هيدغر عليه بقوله: "إن الحوار المطلق بين الفعلين "يفكّر" و"يحب" يؤلف مركز البيت الشعري، إن الرغبة ترتكز على التفكير، يا لها من عقلانية عجيبة تؤسس المحبة على التفكير"⁽⁴⁷⁾

ليكون الشعر بذلك تلك الفسحة التي بما يتقوم الفكر وبها تتفتح الكينونة. إذ يرى هيدغر أنّ الإنسان يستعمل اللغة كما أنّها تستعمله، لتصبح الكلمة وخاصة في شكلها الشعري ليست عبارة عن صوت أو علامة كما تُحتزل عند اللسانيين؛ وإنما هي البعد الأساس لإقامة الإنسان على الأرض، كون اللغة هي: الشعر الأصيل الذي يكشف عن الحقيقة، والشعراء -حسب هيدغر- هم من يعطي للكلمة المنطوقة وظيفتها النافذة في صميم الوجود، إذ يقول: "الشعر هو تأسيس للوجود بواسطة الكلام" والشاعر في نظره قريب من الإله (والإله هنا بعيدا عن الفكرة الدينية، إنّه الحضور الدائم؛ هو حضور المجهول المجاوز لكلّ أشياء العالم) نظرا لأنّه ناطق بالوجود وبلغة الشعر التي هي تجلّ للغريب في المألوف وللبعيد في القريب. (48) فلغة الشعر تجعل الموجود موضع إشعاعٍ وتجلّ وبدونها يكون الانطفاء والاختفاء، الغياب والتواري، التحجّب والعدم.

ليعرّف اللغة ذاتها شعراً بقوله: "إن اللغة هي شعر أصلي، فهي تعبير عن الوجود من حيث هو كذلك للكلمة، والشعر قول أصلي وعلى الإنسان أن ينصت إلى هذا القول، وهذا القول عندما ينادي الإنسان بوجه نداءه أيضا إلى الأشياء وإلى العالم" (49) وعلى العموم فإن سؤال الفكر والشعر سؤال يتجاوز قضية نمط الكتابة الشعرية وما تعلق بها من وزن وتفصيلا كونه سؤال مرهون بالحالة المقلقة التي يعيشها الإنسان ومرتبطة بحالة التيه التي يشهدها العصر، وهي حالة تتطلب الاستجابة لأسئلة ذات أفق أنطولوجي لا تحتم بوجود جزئي بل الموجود في كليته. (50) ليؤسس بذلك هيدغر أنطولوجية فكرية مساوقة لأنطولوجيا شعرية، اعتبارا منه أنّ الشاعر أكثر قلقا على مصيره وحقيقة وجوده.

يبد أنّ الباحث في فلسفة هيدغر عاتمة وفي فلسفته اللغوية خاصة، يجد أنّ اهتمام هيدغر بالموجود الإنساني والذي سعى إلى إعادة الاعتبار له؛ انفلت منه نتيجة غوصه الشديد في تحليله المرتكز على الأبعاد الأنطولوجية، دون أن يعي هذا انقاصاً من قيمتها وأهميتها في الفكر الفلسفي وهو أمر لا يمكن إغفاله؛ ففي هذا يقول الفيلسوف الفرنسي "إيمانويل ليفيناس" (1995-1905 Emmanuel Levinas) "أعتقد بأنّ الإنسان الذي يشتغل بالفلسفة في القرن العشرين لا يمكنه إلا أن يخترق فلسفة هيدغر، حتى ولو كان للخروج منها" (51) وربما من بين أوجه هذا الخروج هو ما تحدّث عنه ليفيناس نفسه في إتيقاه اللغوية. وهو ما ترجمه في قوله: "اللغة كقول هي انفتاح أخلاقي على الآخر" (52).

وعليه تبقى تلك الدينامية التي تتميز بها الفلسفة في سعيها الحثيث إلى تفعيل وتنوع مواضيعها حسب متطلبات العصر وتداعياته سمتها البارزة وسرّ استمراريتها، وهذا ما أحدثه هيدغر حيث حاول الانزياح عن الطرح الفلسفي السابق، إذ أراد للفلسفة أن تحدّد ماهيتها وأطرها وتعيد طرح سؤال الوجود، من خلال اهتمامها وبجتها في مواضيع أكثر صلة بالإنسان؛ في زمن سيطرت فيه التقنية وفقد فيه الكائن وجوده الأصيل، فكانت النتيجة إحداث هيدغر لتلك التوأمة التي مزجت اللغة بالفكر تعبيرا منه عن أنطولوجيا فكرية وسمت فكره بطابع شعري أصيل.

الهوامش:

01. إبراهيم أحمد "اللغة الأصيلية في فلسفة هيدغر الأنطولوجية"، ضمن كتاب: من الكينونة إلى الآخر: هيدغر في مناظرة عصره، ابن الندم ودار الروافد الثقافية، الجزائر، بيروت، ط 01، 2013، ص 17.
02. إبراهيم مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط 01، 2000، ص 241.
03. رشوان مهران ومدني محمد، مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، (د، ط)، ص 85.
04. ويزة قلاز، "تلقي هيدغر في ديناميكية الفكر العربي المعاصر معركة المفاهيم"، مجلة الحوار الثقافي، عدد خريف وشتاء 2014، دار AGP، بئر الجير، وهران، 2014، ص 09.
05. الجابري علي حسين، الفلسفة الغربية من التنوير إلى العدمية، دار مجدلاوي، الأردن، ط 01، 2007، ص 232.
06. M Heidegger, Etre et Temps, trad : françois-vezin, édition gallimard, paris, 1977, p 207.
07. كامل فؤاد، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، ط 01، 1993، ص 197.
08. المرجع نفسه، ص 197.
09. بدوي عبد الرحمن، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 01، 1980، ص 89.
10. هيدغر مارتن، ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هولدرلين وماهية الشعر، تر: فؤاد كامل ومحمود رجب، مر: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، القاهرة، (د، ط)، ص 28، 29.
11. المصدر نفسه، ص 29.
12. المصدر نفسه، ص 29.
13. خليفي بشير، الفلسفة وقضايا اللغة قراءة في التصور التحليلي، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ط 01، 2010، ص 13، 14.
14. إبراهيم أحمد، أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدغر، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ط 01، 2008، ص 10.

15. ماكوري جون، الوجودية، تر: إمام عبد الفتاح إمام، مر: فؤاد زكريا، عالم المعرفة المجلس الوطني الثقافي، (دط)، 1982، ص. 165.
16. المرجع نفسه، ص. 165.
17. كامل فؤاد، أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، ص. 199.
18. المرجع نفسه، ص. 198، 199.
19. إبراهيم أحمد، أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدغر، ص. 12، 14.
20. ناصف مصطفى، نظرية التأويل، النادي الثقافي، جدّة، ط. 01، 2000، ص. 80.
21. ماكوري، جون، الوجودية، ص. 161.
22. إبراهيم أحمد، أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدغر، ص. 72، 73.
23. ناصف مصطفى، نظرية التأويل، ص. 20.
24. وهبة مراد، لمعجم الفلسفي، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر. (دط)، 2007، 543.
25. M Heidegger, Etre et Temps, p59.
26. بيتر كونزيمان وآخرون، أطلس الفلسفة، تر: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت ط. 11، 2003، ص. 207.
27. ماكوري جون، الوجودية، ص. 163.
28. إبراهيم أحمد وآخرون، التأويل والترجمة مقاربات لآليات الفهم و التفسير، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت والجزائر ط. 01، 2009، ص. 26، 27.
29. جاسير دايفيد، مقدمة في الهرمينوطيقا، تر: وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ط. 01، 2007، ص. 147.
30. مهيب عمر، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر ط. 01، 2005، ص. 131.
31. هيدغر مارتن، مبدأ العلة، تر: جاهل نظير، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، القاهرة، د (ط، س)، ص. 91.
32. المصدر نفسه، ص. 62.
33. إبراهيم أحمد، أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدغر، ص. 66.
34. هيدغر مارتن، نداء الحقيقة، تر: عبد الغفار مكاي، دار الثقافة، القاهرة، (دط)، 2007، ص. 205، 206.
35. بارة عبد الغني، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقلي تأويلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ط. 01، 2008، ص. 211، 212.
36. توفيق سعيد، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، مجد المؤسسة الجامعية، بيروت، ط. 01، 2002، ص. 38.
37. صفاء عبد السلام علي جعفر، هرمينوطيقا الأصل في العمل الفني: دراسة في الأنطولوجيا المعاصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، (دط)، 2000، ص. 31، 32.
38. حرب علي، التأويل والحقيقة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، (دط)، 2007، ص. 24.
39. صالح فرج، سلمة، طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، مجلس الثقافة العام، طرابلس، (دط)، 2008، ص. 189.
40. شرفي عبد الكريم، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ط. 01، 2007، ص. 19، 20.
41. ماهر عبد المحسن حسن، مفهوم الوعي الجمالي في الهرمينوطيقا الفلسفية، دار التنوير، بيروت، (دط)، 2009، ص. 37.
42. الشيك محمد، هيدغر وسؤال الحداثة، إفريقيا الشرق، المغرب، (دط)، 2009، ص. 90، 91.
43. المرجع نفسه، ص. 88، 89.
44. هيدغر مارتن، إنشاد المنادى، تر: بسام حجار، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط. 01، 1994، ص. 88.
45. بدوي عبد الرحمن، الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، وكالة المطبوعات ودار القلم، الكويت وبيروت، (دط)، 1982، ص. 111، 112.
46. هيدغر مارتن، ماذا يعني التفكير، تر: نادية بونفقة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دط)، 2008، ص. 49.
47. المصدر نفسه، ص. 49، 50.
48. إبراهيم مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط. 01، 2000، ص. 67، 68.
49. هيدغر مارتن، نداء الحقيقة، ص. 114، 115.
50. طواع محمد، هيدغر والشعر، مجلة فكر ونقد، العدد الثامن، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص. 76.
51. كتير إدريس والحظايي، عز الدين، "مدخل إلى فلسفة لفيناس من الفينومينولوجيا إلى الإتيقا"، تر: إدريس كتير، مجلة أوراق فلسفية، العدد 18، القاهرة، 2003، ص. 04.
52. كيرني ريتشارد، "من الفينومينولوجيا إلى الإتيقا"، تر: إدريس كتير، مجلة أوراق فلسفية، العدد 17، القاهرة، 2006، ص. 23.